

## الكتابة في صدر الإسلام

اتخذ الإسلام الكتابة دعامة من دعائمه ونوه بها منذ أول آية نزلت على الرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى " اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" وأقسم الله عز وجل بالقلم فقال " ن والقلم وما يسطرون" كما أقسم بالكتاب فقال "والطور وكتاب مسطور في رق منشور". وجاءت في القرآن الكريم كلمات اللوح والقرطاس والصحف كما في قوله تعالى "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" وقوله تعالى "ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" وقوله تعالى "إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى".

وقد شجع الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة بطرق مختلفة فمن ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش في معركة بدر ممن يحسنون الكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين بالمدينة. فكثرت الكتابة في المدينة وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده. ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك بل دعا بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية. ففي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له "تعلم كتاب يهود فإني ما آمنهم على كتابي" ففعل زيد فما مضى له نصف شهر حتى حذقه فكان يكتب للرسول إليهم وإذا كتبوا إليه قرأ له. وقد حث القرآن على استخدام الكتابة في المعاملات في قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق". وكانت الكتابة في هذه الفترة المبكرة من الإسلام هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه. فقد كان الصحابة يكتبونه حتى يتحفظوه. وكان جماعة من الكتاب يكتبون آيات القرآن بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب. وكان يكتب له في حوانجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخدم الكتابة في جميع موثيقه وعهوده وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده. فانتشرت بذلك الكتابة على نطاق واسع فلم تعد مقتصرة على كتابة القرآن بل أصبح المسلمون يستخدمونها في كل ما يهمهم في معاملاتهم وعقودهم. وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين.

ومن كتبه التي سلمت من الضياع كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا بالمدينة حين نزوله فيها. وفي هذا الكتاب نجد نصا على أن أهل يثرب "أمة واحدة من دون الناس" وهذه الأمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين. وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغى عليها وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم. وهي أمة يعطوها سلطان الله الذي يرد إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يخاف شره. وكذلك معاهدته التي كتبها بينه وبين قريش عام الحديبية والتي نصت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ذمة لا تنكث "وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه". وكذلك كتابه إلى الملوك من حضرموت باليمن. وممن دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وتصديق رسالته وكتب إليهم في ذلك النجاشي

ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر. كما كتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وإلى ولاية شرقي الجزيرة من قبل كسرى. وكان يكتب إلى القبائل العربية نفسها.

ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم في كل كتبه ومعاهداته لا يعنى بتحبير فني أو تزويق وتمييق وإنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته في صورة موجزة ولغة جزلة متينة وفي غير صنعة أو تكلف. فكان يقصد إلى غرضه بالحروف القليلة والكلمات اليسيرة.

ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واتسعت الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة إلى الكتابة. وقد استخدم الخلفاء الراشدون الكتابة في كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد وفي وصاياهم إلى قضاتهم ورسائلهم إلى أهل الأمصار وفي كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلم ولم تكن الكتابة في عهد الخلفاء الراشدين قد صارت صناعة فنية كما حدث في العهد الأموي والعباسي. وقد صار هؤلاء الخلفاء على خطى الرسول في كتابتهم وما يعقدون من معاهدات فلا يوجد فيها تمييق ولا تكلف وإنما قصد إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدلالة.

ومن أشهر كتب الخلفاء الراشدين كتاب أبي بكر في عهده لعمر بن الخطاب وفيه "إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

ومن أشهر كتب عمر العهد الذي أعطاه لأهل إيليا (بيت المقدس). ورسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة.

وفي عهد عمر اتسعت الفتوحات الإسلامية فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر. ونظرا لكثرة الغنائم ووفرة موارد الدولة لجأ عمر إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين.

والخلاصة أن الكتابة في صدر الإسلام قد تميزت بما يلي

أ- سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الغرض وبعدها عن التكلف وخلوها من عبارات التفخيم.

ب- ميلها إلى الإيجاز حتى لقد كتب خالد بن الوليد رسالة إلى عياض بن غنم وهو محاصر من قبل العدو يقول فيها "من خالد بن الوليد إلى عياض إياك أريد".

ج- كانت الرسائل تبدأ باسمك اللهم ثم يقول صاحبها من فلان إلى فلان ثم يلي ذلك غالبا قولهم السلام عليكم أو السلام على من اتبع الهدى ثم يضيفون "إني أحمد الله إليك" ثم يقول في الغالب "أما بعد" ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله ويختتمها بقوله "والسلام عليك ورحمة الله".